هذه هي الحياة

بقلم: ج. بير

هذا رجل قد لاح له من بين أحزانه، أمل جديد.. إن «حامداً» من زمرة الكادحين، يحصل على قوته من شق القلم.

إنه مازال كاتباً مغموراً يعمل عملاً متصلاً في إحدى الصحف، يتسقط الأخبار ويوافي بها صحيفته، ولا يكاد يجد فسحة من الوقت ليخلو إلى فنه، ويؤلف إحدى الروايات لكي تطبع وتنشر في كتاب!.

وضع «حامد خان» قلمه وأقنع نفسه بأنه قد أنهى يوماً آخر من حياته.. الشاقة!.

لم يكن أمامه سوى المقالة المطلوبة لطبعة يوم الأحد.. وحتى هذه المقالة كانت قد استوت له فكرتها، وكتبت سطورها الأولى، ولن تطلب منه قبل يومين، في حين أنه يستطيع أن يتمها في يومه التالي..

كان الظلام والصمت يخيمان على البيت وهو عائد إليه في المساء، فضلاً عن الوحشة المقبضة التي خلفها ذهاب «موشيراً»، زوجته الوفية!.

وصعد درجات السلم، ووقف في الممر المظلم، ونظر إلى الباب، باب المسكن الذي كان حيناً ما يحتويهما – هو وزوجته – ودفعه، وأضاء النور.

لقد اختفت الآثار التي كانت تدل على «موشيرا» زوجته، عندما كانت تملأ البيت.. الستائر التي تغطي النوافذ قد تغيرت، وأغطية

الوسائد استبدلت بها سواها، وملاءة السرير قد رفعت عنه ووضعت ملاءة أخرى لم تستعمل من قبل.. لاشك أن اليد التي فعلت هذا قد فعلته عن قصد، لعلها أرادات له أن ينسى الأمس،

– نعم، نعم يا حبيبي، إلى أن انتهى من تأليف الكتاب...

قالها متلطفاً معه، ثم أرسل آهة حرى.. كان من الصعب عليه أن يصارح الصبي بأن الكتاب لن يتم، وقد رأى الكذب عليه أهون من أن يفجعه في آماله.

وهكذا واجه حامد الحقائق.. فسعى إلى عمله منذ اليوم التالي لوفاة «موشيرا»، وكان موقف زملائه منه موقفاً حكيماً، فلم يتفجعوا ويتباكوا أمامه كما يفعل المراءون، واكتفوا بكلمات العزاء أو المواساة، وسارت الحياة عقب ذلك في مجراها الطبيعي.

***

خلع حامد ملابسه، وساورته الرعبة في أن يرى ولده ويطمئن عليه وهو في سريره.. ولكنه فضل ألا يزعجه، فربماكان غارقًا في أحلام سعيدة.. وجلس الرجل على سرير وراح يدخن، وأحس بشيء من القلق أذهب النعاس من عينيه، فأطفأ لفافته وهب واقفاً، ثم أتجه إلى الغرفة التي اعتاد أن يجعلها مكتباً له.

وفكر في أن يلقى نظرة على الصفحات التي كتبت من الرواية التي كان قد شرع فيها من قبل، وكان يضعها فوق ركن من مكتبه، منذ الليلة التي رحلت فيها «موشيراً»، قبل سبعة أيام.

كان الكتاب من وحي اقتراحها هي، وفكرتها.. قالت له ذات يوم بعد أن روى لها قصة زميل ألف كتاباً ولقي رواجاً «لماذا لا تؤلف أنت أيضاً رواية في كتاب؟» ولما أجابها بأن هذا عمل ضخم، وأنه لا يكاد يجد فسحة من الوقت للكتابة بعد عمله الشاق المرهق في تسقط الأخبار للجريدة، قالت له مشجعة: «إنك تستطيع بلاشك أن تفعل ذلك يا عزيزي، لا تتهيب ولا تتقاعس، فما عليك إلا أن تتخيل أنك تروي قصتك لي، لا للناس، وتكتبها بمثل هذه البساطة التي ترويها لي بها.. تفعل ذلك جزءاً فجزءاً، وتكتب بضع صفحات في كل ليلة...».

ولما رأته متردداً قالت له: «إفعل هذا لأجلي.. لأجل سروري».

عندئذ لم يملك إلا أن يشرع في وضع روايته..

وكان عملاً صعباً في البداية، وكان هو كثيرًا ما يفكر في أن ينحى القلم ويكف عن الكتابة.. ولكن «موشيرا» كانت وراءه دائماً، كانت تسنده وتشجعه وتحفزه على المصابرة والمثابرة، وكانت تقول له دائماً: «أروح إلى نفسك بأنك تقص عليَّ روايتك..».

ونجحت الفكرة، وتغلبت روح الأمل على نوازع اليأس، وأخذت الصفحات تطرد، وتتضاعف، وتكون هيكل الرواية أكمل تكوين، حتى اكتسبت المناعة ضد عوادي الفناء، وعوامل العفاء!.

كانت «موشيراً» فخورة بزوجها، تجلس إليه أو تقف بجانبه في كل ليلة، وكلما فرغ من كتابة صفحة، مرت عليها بعينيها، ولمعت فوق شفتيها ابتسامة الرضا، والاغتباط.. وكان هو لا يعبأ بمرور الوقت وهي بجانبه، حتى إذا نال منه التعب، رأها تقدم له فنجاناً من القهوة، فيرتشفه، بينما تتناول هي بعض أقراص الحلوى، ويدب في قلمه النشاط من جديد، ويسترسل في عمله..

وكانت تمني نفسها بأشياء كثيرة.. كانت لها آمال كبار، وقد رتبت في ذهنها كل شيء.. سيقدر لهما يوماً أن يشتريا منزلاً، وسيكتب حامد روايات أخرى، وسيغير من نظامه الراهن، فلا يظل من الكادحين المغمورين الذين يعملون بغير راحة ولا جزاء، عملاً مرهقاً في جريدة محلية.. وسيطوفان العالم يوماً ما.. ومعهما ولدهما..

أما هو فلم يكن لديه فكرة حتى ذلك الوقت عن أن زوجته الوفية ستخط في وقت قصير فصلاً رائعاً في كتابه ذاك، أو أنها ستختمه بنفسها أروع ختام، وأبلغ ختام.. لم يكن يعلم حتى آخر لحظة أن شريكة حياته وشريكة عمله وجهاده لن تعيش بعد ذلك.. ولا هي كشفت عما تعانيه، بل كانت كلما جاءتها الأزمة القلبية تكتم آلامها وتخفي داءها، وتتحامل

على نفسها لكي تبدو عيناها لامعتين دائماً، وصوتها متفائلاً ابداً، والبسمة المشرقة المشجعة تشيع في وجهها.. لا تفارقه!.

***

ألقى حامد نظرة على الصفحات التي فرغ من قبل من تدبيجها، ومرت لحظة رهيبة فكر خلالها في أن ينتزع هذه الأوراق ويمزقها جذاذات، ويلقى بها بعيدًا، ويكسر القلم فلا يسترسل في مثل هذا العمل الذي خيل إليه أنه قد جنى عليه وعلى هناءته.. كان الأحرى به عوضاً عن تلك الساعات التي أمضاها في كتابة مؤلفه، أن يمضيها بجانب زوجته التي راحت شهيدة الوفاء، وضحية الإخلاص!.

وبينما هو يهم بأن يصنع ذلك، إذ صافحت أنفه رائحة قهوة، القهوة التي اعتاد أن يتناولها من يد زوجته!.. ورفع رأسه وتشمم هواء الغرفة.. ليس هناك أدنى شك في ذلك، ولكن كيف يكون هذا؟ لقد انقضى العهد السعيد، ولحظات الهناءة التي كان يشرب فيها القهوة، ولم يعد في هذه الغرفة إلا ما خلفته الذكريات الأليمة.

وظل برهة لا يدري ماذا يصنع، ثم وقف واتجه ناحية المطبخ.. وهناك فوجيء مفاجأة أخرى..

لقد وجد فتاه الصغير «جاڤد» يقف بالبيجاما تجاه الموقد، وفوق البيجاما روب حريري أهدته إليه أمه في عيد ميلاده الأخير، حين كانت سنه لا تتجاوز التاسعة والنصف.

– ماذا تصنع هنا يا ولدي في هذه الساعة المتأخرة؟.. لقد ظننت أنك في سريرك، مستغرق في النوم!..

وأجابه الصبي وفي عينيه آثار النعاس:

– إني أصنع لك القهوة، يا بابا.. هكذا أوصتني أمي.

– القهوة، أوصتك بها أمك؟!!.

– نعم يا بابا..قالت لي «لاتنس كلما رأيت بابا ساهرًا في مكتبه – يكتب ويؤلف – أن تعد له القهوة، وأن تقدمها له».. وهأنذا أعدها، وسأحضرها إليك في المكتب على الفور.. هل يرضيك هذا يا بابا».

وأجاب الوالد وهو ينتزع الكلمات من فمه في صعوبة:

– طبعاً. طبعاً..

وغادر المطبخ وعاد أدراجه مثقل الخطى إلى مكتبه.. لقد انقلبكل شيء رأساً على عقب.. لم يعد فريسة لليأس القاتل، أن يسلمه بعد الآن زمام نفسه، ويطلق الدنيا، ويحطم العمل الذي بناه، ومعالم المجد التي أقامها مع زوجته..

وأحضر جاقد القهوة، وقدم الفنجان فوق الصينية،كماكانت تفعل أمه، ومعهكوب اللبن ووعاء السكر، وخيل إليه أنه يرى طيف امه في

شخص جاڤد.. وقرب الطفل إليه في رفق، وطوقه بذراعه، وقال له وهو يحنو عليه:

– ولكن متى حدثتك ماما عن القهوة يا جاڤد؟

وتردد جاڤد قليلاً ثم قال:

– في المرة الأولى التي زارها فيها الطبيب.. لقد نادتني بعد ذهابه وقالت إنها ربما تذهب بعيداً، بعيداً جداً.. وأنها إذا ما فعلت ذلككان علي أن أحضر لك القهوة بدلاً عنها، وأوصتني بألا أنسى ذلك، إذاكنت أحبها حقاً..

وكان الصبي يروي هذه القصة والبكاء يكاد أن يغلبه.. وسالت دمعتان فوق خديه، وترقرقت دمعتان في عينيه.. فقد ذكرته القصة بفجيعته في أمه!.

– وهل ذكرت لك أيضاًكيف تصنع القهوة؟!.

ولم يقو الطفل على الإجابة في هذه المرة، وئز على أسنانه، وارتعش فمه الصغير وهو يتمالك نفسه جاهداً.

وقال الوالد يسري عنه، وهو يربت علىكتفه:

– أحسنت صنعاً يا ولدي.. إن بابا فخور بك.. تعالى يا حبيبي، تعالى اجلس إلى جانبي كماكانت ماما تفعل..

وقام إلى دولاب في الحائط، وملأيده بالحلوى، وقدمها إليه وهو يقول:

– ضع هذا «الملبس» في فمك وتحلبه، بينما أشرب أنا القهوة، فهكذا كانت ماما تصنع..

وأخذ الطفل أقراص الحلوى، وتناول واحدة وجعل يتأملها قبل أن يضعها في فمه.. تماماً كما كانت أمه من قبل تفعل.. ما أشبه الصبي بأمه!.. لقد ترك الوالد طفله لأمه لكي تتولى شئونه، وتتعهد بالرعاية.. وكانت هي تقول لزوجها أنه يشبهه، ولكنه الآن وهو يتأمله قد أيقن أنه شديد الشبه بأمه.. الملامح، والرقة، وحركاته الرشيقة، والعاطفة الفياضة.. كلها تذكره بأمه.. بل لقد شعر بأكثر من هذا.. شعر بأنه طالما كان جاقد في البيت، فإن شيئاً من أثر أمه، من روحها، ما يزال هناك يحس به إحساساً قوياً، ويؤمن به إيماناً أقوى!..

***

ولفت حامد وجه الصبي إليه، وقال له فجأة:

– جاقد، أتريد أن تذهب مع خالتك شيرين كما قلت لك من قبل، أم تفضل أن تبقى هنا، معي؟..

ونظر الصبي طويلاً إلى والده، واهتزت كل عضلة من عضلات وجهه، وجهد من جديد في أن يمسك دموعه وهي تطفر من عينيه، ثم قال:

– بل أريد أن أبقى هنا، يا بابا.. أريد أن أبقى معك لأرعى شئونك وأعد لك ما تطلبه.. إن ماما تحب ذلك..

ورفع حامد الطفل وضمه إليه، وطبع على خده قبلة أبوية حارة، وقال له:

– حسنًا.. ستبقى إذن معي يا حبيبي، وستظل بجانبي..

ووضع الصبي على ركبتيه واستأنف قائلاً:

– سترى أن الحياة لن تمضي في يسر يا بني.. إننا هنا وحيدان، غريبان في هذه الحياة، إننا روحان في قارب بغير دفة ولا مجداف، وسط بحر واسع متلاطم الأمواج، ولكننا سنملط الزمام على كل حال.. نعم، سنتغلب على كل العقبات، والصعاب والأخطار...وسنصل على الشاطيء معاً.. عن طريق ما.. وأول كل شيء سأعمل على أن أفرغ من كتابي هذا، ثم..

وفجأة رأى بارقاً جديداً من الأمل.. إنه ليس وحده، بل هناك «جاڤد» إلى جانبه.. سيعمل من أجله، وسيستمد منه القوة والصمود.. لا ينبغي أن يتم الكتاب من أجل «موشيرا» فقط، بل أيضاً لكي يعين

جاقد على مواجهة الحياة، والتغلب على الصعاب التي واجهت الصغير وهو يخط الصفحات الأولى من كتابه.. كتاب الحياة.. إن موشيرا سترقد حينئذ قريرة العين.

والتفت الطفل إلى والده وقال له في براءة:

– ولكن القهوة كادت تبرد يا بابا.

وقطع الرجل الذي عركته الأيام تفكيره، وقال ملاطفاً:

– نعم يا ولدي..

وأفرغ الفنجان في جرعة واحدة.. كانت قهوة عجيبة..بنها أكثر من اللازم، ونضجها أكثر مما ينبغي، ولكنه مع ذلك أحس بأنه أحلى قهوة وألذها مذاقاً، وأطيبها نكهة..

وناما ليلتهما ليستقبلا عهداً جديداً.. فهذه هي الحياة..

– لقد كانت غلطة يا أبي.. ما كان يحق لي أن أذهب بعيداً في عنادي...